دور بني عمار العلمي

صفحة ناصعة في تاريخ لبنان وسوريا

السيد حسن الأمين(*)

شهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر الميلاديان في بلاد الشام قيام إمارات عربية شيعية ثلاث، قُدّر لها أن تمسك بالزمام العربي جهاداً للغزاة من البيزنطيين (الروم) في حين، ومن الصليبيين في حين آخر، ورعاية للأدب والشعر والعلم، فيكون منها الذادة والقادة في ميادين الحرب، ويكون فيها العلماء البارعون والشعراء المبدعون في مجالات الفكر.

هذه الإمارات الثلاث هي:

الإمارة الأولى إمارة بني عمّار اللبنانية ـ السورية، أقول اللبنانية ـ السورية لأن رقعتها شملت أرضاً من لبنان وأرضاً من سورية، فإذا كانت عاصمتها لبنانية، هي طرابلس، فإن ما ارتبط بتلك العاصمة كان أرضاً ممتدة من تخوم بيروت حتى تخوم أنطاكية.

وإذا كان هناك من رأي يقول إن بني عمار هم من أصول أفريقية أمازيغية، فإن حياتهم العربية الطويلة منذ انتقالهم إلى مصر، وتمركزهم فيها التمركز العربي الأصيل، ثم انتقال أحد فروعهم إلى طرابلس وثبوت جذورهم فيها الثبوت البعيد المدى، قد جعلهم من العرب في الصميم.

وهناك مَنْ ينفي عنهم الأمازيغية ويجعل جذورهم عربية موغلة في عروبتها، فقد نقل صاحب كتاب "المجتمع في بلاد الشام"(١) أن بني عمار بطن من الدواسر، وهم إحدى قبائل بادية نجد، كما ذكر أنهم من أشهر قبائل الزيدية في بلاد قعطبة بجنوبي الجزيرة العربية، وأنهم فرقة من بني سعيد إحدى عشائر سوريا الشمالية على ما يذكر زكريا وصفي زكريا في كتابه "عشائر الشام"(٢).

(*) كاتب ومؤرخ لبناني معروف.

والإمارة العربية الشيعية الثانية هي إمارة بني منقذ في "شيزر"، وهم الذين ترجع أصولهم إلى كنانة.

أمّا ثالثة هذه الإمارات، فهي إمارة بني مرداس الذين ينتمون إلى بني كلاب.

وسيكون حديثنا في هذا المقال عن (بني عمار)، وسنأخذ هنا بالرأي الأشهر الذي يقول برجوع جذورهم إلى قبيلة كتامة المغربية الأمازيغية.

فعند قيام الدولة الفاطمية كان شيوخ هذه القبيلة، ممن كان لهم الصدارة في مؤسساتها الإدارية والعسكرية، نذكر منهم الحسن بن عمار الذي كان من أبرز رجال الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

ثم كان بنو عمار قضاة طرابلس، ثم أصبحوا أمراءها، فمنهم أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار المتوفى سنة ٤٦٤هـ، ثم جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار المتوفى سنة ٤٩٢هـ، ثم فخر الملك عمار بن محمد بن عمار المتوفى حوالي سنة ٥١٤هـ، وأبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج محمد بن عمار المتوفى سنة ٥٠١هـ.

كان استقلال بني عمار بطرابلس سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م)، وكانت إمارتهم تمتد حتى تخوم بيروت من جهة، وحتى أرباض إنطاكية من جهة ثانية، وتمتد من نواحي جبلة في سوريا إلى قلعة صافيتا وحصن الأكراد والبقيعة. وفي لبنان حتى الهرمل والضنية وجبة بشري وبلاد العاقورة شرقي بلاد جبيل، وجونية نفسها كانت ضمن إمارة بني عمار.

وقد نمت إمارتهم نمواً عظيماً حتى أصبحت طرابلس في القرن الحادي عشر أعظم مدينة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانت أساطيلها تتنقل في أنحاء هذا البحر، فهي المنفذ البحري الرئيسي لبلاد الشام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، وتنقل منتجات بلاد الشام والشرق في أوروبا، وإليه تفد من الخارج لتحمل منه إلى سائر بلاد الشام.

وكان بنو عمار وهم مثقلون برد الهجمات الصليبية عليهم من البر والبحر، يسيّرون أسطولهم التجاري إلى ثغور البحر المتوسط[٣]، وظلت طرابلس ومعها دمشق تموّنان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك[٤]، وكان التاجر الأوروبي القادم من البندقية أو جنوى يعود إلى بلاده وهو يحمل سلال السكر وأكياسه من طرابلس[٥].

وجمع بنو عمار زراعة قصب السكر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر "أبو علي" وفي بساتين طرابلس، وأقاموا المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه بشكل رقائق أو ناعم، أو بشكل حلوى.

وكان من حسن سياسة بني عمار وصلاح حكمهم، أن أثرت المدينة، وكانت على أحسن حال اقتصادي حتى خلال الحصار الصليبي لها براً وبحراً، إذ ظلت صامدة تقاتلهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية وحسن إدارة اقتصادها.

وعندما أوفد القائد الصليبي ريموند، خلال الحصار وفداً لمفاوضة فخر الملك، ومر الوفد بأسواق طرابلس، أدهشه ما رأى من تنوّع البضائع ورواج التجارة وعظيم الثروة والرخاء الذي تنعم به المدينة(٦).

كان مؤسس الإمارة أبو طالب الحسن بن عمار سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) ـ كبير العقل، سديد الرأي، عالماً فقيهاً، كاتباً مجيداً، ألف كثيراً من الكتب النفيسة. أما منقبته الكبرى فهي تأسيسه "دار العلم" التي جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب. وكان يبعث في التفتيش عن الكتب إلى جميع الأقطار، ويبذل في شرائها باهظ الأثمان، ويجلب لها الكتب النادرة. واستمر الأمر بعده في عهد خلفائه. هذا فضلاً عن عنايته بالعلم وطلابه فيها، وتشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدراسة.

وإلى جانب "دار العلم" قامت "دار الحكمة" التي قدم إليها العدد الكثير من طلاب العلم، حتى أصبحت طرابلس كعبة علم ومركزاً من أعظم المراكز العلمية في العصر الوسيط، يفد إليها طلاب العلوم والفنون من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وهندسة وطب.

وعدا طلاب العلم فقد كان يفد إليها العلماء لمراجعة مؤلفات أشهر المؤلفين في العلوم والمعارف. كما كانت تعقد حلقات علمية لكبار العلماء، ينضم إليهم العلماء الوافدون إلى طرابلس للاستزادة من العلم.

وقد جدد "دار العلم" التي أنشأها أمين الدولة، ابن أخيه وخليفته جلال الدولة سنة ٤٧٢هـ (١٠٨٢م)، إذ كانت الظروف مؤاتية لجلال الدولة أكثر مما كانت مؤاتية لعمه وسلفه أمين الدولة.

ففي عهد الأول كانت الإمارة في طور التأسيس، كما أن عمر حكمه كان قصيراً. أما جلال الدولة فقد استمر في الحكم زهاء ثمانية وعشرين عاماً، اتسعت فيها أطراف الإمارة وعظم شأنها.

وقد عني جلال الدولة بـ "دار العلم" عناية فائقة، وجعل لطلاب العلم فيها رواتب، وفرّق على أهلها ذهباً، وجعل لها نظاراً يتولون القيام بذلك.

وكان شعراء الشام يفدون لمدح أمراء بني عمار ونيل جوائزهم، فيلقون الترحيب والتكريم. وكثرت حلقات التدريس، وازدحمت المدينة بأشهر الأعلام من أدباء وفقهاء وشعراء ولغويين من الذين يفدون إليها من كل مكان. وقصدها الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم، كما كان يفد إليه التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء من كل البلاد(٧).

كما ازدهرت فيها ترجمة العلوم والآداب عن اللاتينية والفارسية وغيرهما إلى اللغة العربية، ومنها إلى اللغات الأخرى. ولدينا شهادة بذلك من المستشرق "دي لاسي أوليري" في كتابه "علوم اليونان، وسبل انتقالها إلى العرب". وسادت في ذلك كبريات الحواضر العربية، فكثر فيها المترجمون والناسخون والكتّاب والخطاطون.

ويقول "ستيفن نسيمان" في كتاب "تاريخ الحروب الصليبية"(٨) عن المكتبة: إنها أصبحت أروع مكتبة في العالم.

وعندما سقطت "طليطلة" في الأندلس في أيدي القشتاليين سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) يبدو أنه هاجر فريق من علمائها إلى طرابلس، وكان منهم: أحمد بن محمد أبو عبد الله الطليطلي، فاحتضنه بنو عمار وجعلوه متولياً لـ "دار العلم"، إذ كانوا يختارون للنظر في أمورها كبار رجال العلم من أمثال: الحسين بن بشر بن علي بن بشر، وأسعد بن أبي روح.. وغيرهما من أمثالهما.

وكان في المكتبة مئة وثمانون ناسخاً، عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجود نسخ منها في المكتبة، وإضافتها إلى الكتب الموجودة فيها.

ولم يقتصر الأمر على الكتب العربية، بل ضمت المكتبة الكثير من كتب اليونان والرومان والفرس، وبين الكتب العربية عدد كبير منها بخطوط مؤلفيها. ومكتبة كهذه تحتاج إلى الإنفاق الكثير عليها لما تضمه من عاملين فيها ومشرفين عليها ونسّاخين وخطاطين ومترجمين ومجلدين ووراقين ومشترين يحملون إليها الكتب مهما غلا ثمنها.

أما عدد الكتب التي احتوتها مكتبة بني عمار، فقد تعددت الأقوال في شأنه:

فابن أبي طي يقول: إن العدد كان ثلاثة ملايين كتاب، ويؤيد ذلك ابن الفرات، وعلى هذا القول كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين منهم: أرنولد وغروهمان وغيبون وشوشتري الذي يقول في كتابه "مختصر تاريخ الثقافة الإسلامية": إن مكتبة طرابلس كانت تحتوي أكبر عدد من الكتب، عرف أن مكتبةً ما حوته حتى ذلك الزمن، ألا وهو ثلاثة ملايين كتاب. والمستشرق الفرنسي كاترمير لم يخالجه شك في تقدير العدد بثلاثة ملايين كتاب.

ويبدو أن المكتبة بدأت في عهد منشئها الأول أمين الدولة بمئة ألف كتاب، وأن العدد ارتفع في عهد خليفته جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين.

وكان في المكتبة قاعة خاصة للنسّاخ والخطاطين مزودة بكل ما يحتاجونه من الأوراق والمحابر والأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يفدون إليها من كل مكان، فاكتظت طرابلس بالعلماء والأدباء والشعراء والمحدثين والفقهاء، وبالطلاب الآخذين عنهم، حتى صارت مدينة طرابلس تسمى "دار العلم". وأسهم عدم بعد طرابلس عن دمشق في ازدهار

الثقافة في طرابلس، إذ كان ينتقل إليها كل عام زائرون من دمشق ليشاركوها الحياة العلمية ثم يعودون إلى بلدهم.

ومن المقرر عند جميع مَنْ كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية ووصولها إلى أوروبا، أن من عوامل هذا الوصول كان عامل الاتصالات التجارية بقوافلها المتنقلة بين الشرق والغرب. وقد كان لطرابلس بني عمار الأثر الفعال في ذلك، فإليها كانت تفد القوافل التجارية البرية من بلاد الشام، ثم ينقلها إلى مرافئ أوروبا أسطول بني عمار التجاري الذي أُعِدّ أحسن إعداد، ناقلاً معها جذور الحضارة الإسلامية العربية، وليس كالعلائق التجارية بين الأمم ما يداني في التقدم الحضاري.

وإذا كانت طرابلس بني عمار قد حفلت بطلاب العلم ورجالاته الذين جاؤوا إليها من الأندلس وشمال أفريقيا ومصر والحجاز والعراق وإيران وأنحاء بلاد الشام وآسيا الصغرى، فإن من أشهر مَنْ جاء إليها للإفادة من "دار العلم" هو أبو العلاء المعري. وقد شكك المؤرخ "ابن العديم" بذلك، وتابعه آخرون. قال ابن العديم: ".. وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء المعري رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم في بغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وأربعمائة. وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك سنة تسع وأربعين وأربعمائة"(٩).

على أن الدكتور مصطفى جواد قد فنّد هذا القول قائلاً: "ومن الحق أن في النفس ما فيها من قول ابن العديم: "وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك". فالتجديد عند أهل العربية: إعادة شيء عتيق إلى حالة حسنة مستأنفة، فليس هو بتأسيس ولا بناء. ولو كان هذا العالم الكبير متثبتاً في قوله، لقال: "وإنما أنشأ دار العلم" أو "إنما أسس دار العلم"، فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس والإنشاء، وبذلك تسقط دعوى مَنْ أنكر دراسة أبي العلاء المعري بدار علم طرابلس، لأن التجديد يدل على أن دار العلم كانت منشأة قبل ذلك، فأصابها تلف أو حريق استوجب تجديدها".

ثم يذكر الدكتور مصطفى جواد إنشاء أمين الدولة الحسن بن عمار المعاصر لأبي العلاء المعري لدار العلم، ويتعارض هو وقول ابن العديم من تجديد جلال الملك لها.

وفي قصور بني عمار كانت تقام حلقات المناظرة بين الفقهاء والشعراء، وكان بنو عمار يقيمون مسابقات للشعراء يتبارى فيها هؤلاء بنظم القصائد(١٠).

وكان أمراء بني عمار في الوقت نفسه علماء مؤلفين، يؤلف بعضهم في ما يسمى اليوم بالاقتصاد السياسي وفي غير ذلك.

وأما ما كان من نضال بني عمار للصليبيين ومقاومتهم لهجماتهم التي استمرت ما يقرب من عشر سنوات، فذاك له حديث آخر قد نعود إليه في وقت آخر.

قلنا في مفتتح الكلام أن القرنين الحادي عشر والثاني عشر شهدا في بلاد الشام قيام إمارات عربية شيعية هي صفحات من أزهى الصفحات في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام.

وتخصيصنا لهذه الإمارات بالصفة الشيعية، لا لأننا ننحو منحى مذهبياً، فنحن ـ اعتقد ذلك أم لم يعتقده بعض الناس ـ أبعد الخلق عن المناحي المذهبية. ولكننا فعلنا ذلك لأننا أمام حملات تريد تصوير الشيعة بغير حقيقتهم التاريخية والعقيدية، ولما كنا نعلم ما نعلم عن التاريخ الشيعي الناصع جهاداً وعقيدة وعلماً وإخلاصاً، أردنا أن نقدم حقائق هي جزء من تاريخ هذه الأمّة تفاخر به وبرجاله، وبذلك نكون قد ساهمنا في تسجيل صفحات من هذا التاريخ، تعلي من شأنه وترفع من ذكره.

وهل من ظلم للتاريخ الإسلامي وللتاريخ العربي منه بخاصة، أكثر من أن يُتجاهل أمر بني عمار في الميدانين: الثقافي والنضالي.

والذين يختلفون في تاريخ لبنان وفي تدوين هذا التاريخ وتدريسه، يتفقون في شيء واحد هو الإغضاء عن أنصع صفحة في تاريخ لبنان: صفحة بني عمار!!

الهوامش

١) المجتمع العربي في بلاد الشام، ص٨٩، نقلاً عن الألوسي في "تاريخ نجد"، وعن عمر كحالة في معجم القبائل العربية، ٢/٨٢١.
٢) وصفي زكريا، عشائر الشام، ٢/٢١٢.
٣) الحياة الثقافية في طرابلس، ص١٥.
٤) فيليب حتى، "لبنان في التاريخ"، ط١٩٥٩، ص٤١٤
٥) سيفيريو هونكه، "فضل العرب على أوروبا" القاهرة، ص٢٨.
٦) حسن جشي، "الحروب الصليبية"، القاهرة، ص٦٥.
٧) "الحياة الثقافية طرابلس الشام"، ص١٤.
٨) ترجمة العريني، ج٢، ص١١٣، بيروت ١٩٣٩.
٩) الإنصاف والتحدي، ص٥٠.
١٠) الحياة الثقافية في طرابلس، ص٣١-٣٦.